

## مولد ادب الجاهلي

### كتاب جديد في الموضوع\*

بقلم فؤاد افرام البستاني  
استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

لا اعرف كتاباً عصرياً في الادب العربي احدث الضجة التي احدثها كتاب الدكتور طه حسين<sup>(١)</sup> . ولا اعرف موضوعاً عربياً لهدنا اسأل من الخبر ، وسود من الورق ، ما أساله وما سوده موضوع الشعر الجاهلي . ولم يكن السبب في كل هذا فضيلة خاصة بالموضوع ، او ميزة جوهريّة في الكتاب . انما تضافرت على ذلك اسباب متعدّدة منها داخلية في المؤلف ، وان تكن خارجة عن موضوعه ؛ ومنها خارجية عن الكتاب وعن الموضوع . امّا الاولى فثالها تلك الآراء التي طرحها الدكتور يريد ان ينال بها من الادب القديم ورواته ، فنال من الدين وكتبه . واما الثانية فهي ان الكتاب ثمره من ثمار الجامعة المصرية ، وان صاحبه استاذ من اساتذتها - بل هو «ابننا البكر» على نحو ما جاء في خطبة لمديرتها - وان الجامعة المصرية مؤسسة اميريّة تعيش بال الأمة وتلتحق بوزارة المعارف ، فاستاذها اذا موظف من موظفي الحكومة عليه ما على سائر الموظفين من الواجبات . واذا عرفنا ان من هذه الواجبات احترام

\* الندد التحليلي لكتاب « في الادب الجاهلي » بقلم محمد احمد الزراوي ، وله مقدمة بقلم الامير شكيب ارسلان - القاهرة ' المطبعة السلفية ' ١٩٢٩ - ص ٦٠ + ٣٢٥ ، وسط - الثمن ١٥ غرناً .

(١) الدكتور طه حسين : في الشعر الجاهلي - القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٦ - ص ١٨٣ صئير - ثم « في الادب الجاهلي » - مطبعة الامتداد ١٩٢٧ - ص ٢٧٦ وسط

دستور البلاد بجميع ما فيه ، واذا عرفنا ان هذا الدستور يقرّر الاسلام ديناً رسمياً للحكومة المصرية ، واذا رجعنا الى رأي علماء المسلمين القائلين : « ان الكتاب كله مملوء بروح الإلحاد والزندقة » وانه « دعامة من دطلم الكفر » وممول لهدم الاديان »<sup>١</sup> ، ادركنا السبب المهم في تلك الثورة الفكرية . وهناك سبب آخر خارجي ايضاً ، وهو ان صاحب الكتاب ركن من اركان «المجددين» في الادب ، او من يدعون انفسهم بالمجددين ، ويتمنون الى معقل التجديد المائل بالجامعة القائمة تجاه الازهر ، معقل العلم « القديم » في مذهبهم . فاذاً كان الكتاب قبلة يُلقبها «المجددون» ديناً وادباً ، في صفوف « القداما » المحافظين ديناً وادباً . . . . فتطارت شظاياها واصابت رجال الفريقين ، فقاموا يتناظرون في الجرائد والمجلات والكتب ، بنفث تراوح بين القديم والحديث ، ولهجات تبائن بين الشدة والاندفاع ، ووجهات نظر تختلف بين الدين والادب . فمن مصطفى صادق الرافعي يناضل « تحت راية القرآن »<sup>٢</sup> بكل ما في قلبه من جرأة وحماسة ، وبكل ما في لسانه من بلاغة وسلاطة ، يرمي الكتاب وقصده المؤلف ، ويرمي المؤلف وقصده الجامعة ، ويرمي الجامعة وقصده الفكرة التي تديرها ؛ الى محمد فريد وجدي<sup>٣</sup> يجهت ان يوفق بين القديم والحديث ، وان يجمع بين الاثبات والانكار ، يثني على منهج الدكتور ويعدّه « من اكل المناهج بل هو المنهج الوحيد الذي ينطبق على اصول الفلسفة العصرية المنتجة »<sup>٤</sup> ولكنه بأسف ان يكون المؤلف أخذ هذا المنهج عن ديشكارت ويود لو اخذ عن القرآن<sup>٥</sup> ، يرى اختلاق اكثر الشعر الجاهلي ناسباً كتب المحاضرات الى الكذب والتروير ، ولكنه يرى ايضاً انه « لا يمكن الاستغناء عن هذا الشعر

(١) راجع قرار لجنة العلماء المرفوع لشيخ الجامع الازهر في ٢٦ شوال ١٣٤٤

(٢) مصطفى صادق الرافعي : تحت راية القرآن ، المركبة بين القديم والجديد ،

القاهرة ١٩٢٦

(٣) محمد فريد وجدي : نقد كتاب الشعر الجاهلي ، القاهرة ، ٥ اكتوبر ١٩٢٦

(٤) الكتاب المذكور ، ص ١٥

(٥) الكتاب المذكور ، ص ١١

في بناء تاريخ العرب الجاهليين.<sup>(١)</sup> ؛ الى محمد لطفي جمعة<sup>(٢)</sup> يجتهد في السير على اسلوب علمي محض حتى اذا رأى الفرصة سانحة افصح المجال لاطافته وحماسه ؛ الى محمد الحضر حسين التونسي<sup>(٣)</sup> يجلل الكتاب المتقود فقرةً فقرةً وفصلاً فصلاً فيزيئها ويتوسع في ذكر سبق المستشرق مرغوليوث الى آراء الدكتور في الشك والانكار ؛ الى غيرهم من كتاب المقالات المتعددة ممن لا يسمننا سرد اسماهم .

اما موقف الدكتور طه حسين تجاه هذه الحملة فكان ، على ما ظهر ، اقرب الى السكينة منه الى الحركة والضجة . وكأنه لم يكثرث الا لنتيجة ما نُسب اليه من الكُفر ، فصرح على صفحات الجرائد بانه مسلم مؤمن بالله وبانبيائه ؛ وبانه لم يقصد الطعن في دين من الاديان . على ان هذا التصريح لم يكف . فرأت الحكومة ، على اثر هياج المجلس النيابي ، ان تمنع انتشار الكتاب ، فضبطت جميع نسخه .

ثم أُجيز للمؤلف ان يستفيد مما كان في كتابه لا يمس الدين ولا يحط من كرامة الانبياء . فحذف منه ذلك الفصل وتوسع في غيره ، ونشره سنة ١٩٢٧ ، قائلاً في مقدمته : « هذا كتاب السنة الماضية حُذف منه فصل واثبت مكانه فصل وأضيفت اليه فصول . . . » اما عذرائه فاستبدل به عنواناً جديداً ، وبعد ان كان « في الشر الجاهلي » اصبح « في الادب الجاهلي »

وهذا الكتاب هو الذي يجلله الاستاذ محمد احمد العمراوي وينتقده في كتاب جديد أهدي اليه مؤخراً . فذى ان الانتقاد على الدكتور طه حسين لم يمتس بذاك الفعل المحذوف ، بل هو يتناول كل نظريته وتطبيقاتها المتعددة ، بل هو يتناول منهج البحث نفسه ويحس علمية تلك الطريقة في الشك والتردد التي نسبها المؤلف الى ديكارت .

وهو ما انتبه له الاستاذ العمراوي ، فبذل الجهد في الاطلاع على مظان

(١) ك . م . ص ٣١ - ٣٢

(٢) محمد لطفي جمعة : الشهاب الزايد : بحث تحليلي استفادي ورد علمي تاريخي على

كتاب « في الشر الجاهلي » - القاهرة ١٩٢٦ .

(٣) محمد الحضر حسين التونسي : نفس كتاب في الشر الجاهلي - القاهرة ١٩٢٥ .





على قول الدكتور ان نبيان القومية والدين شرط اساسي من شروط البحث العلمي . وهي هذه بنسبها ( ص ١٢٢-١٢٣ ) :

«انه ذهب الى ان نبيان القومية والدين شرط اساسي من شروط البحث العلمي . ان كان اراد بذلك أن على الباحث ألا يخفي بعض الحق او يتراسخ في استيفاء الدليل العلمي بحسب القومية او ارضاء لعاطفته الدينية فقد اصاب . اما اذا كان اراد ان الانسان لا يستطيع ان يكون ذا عاطفة قومية او دينية قوية من غير ان ياتي او يداجي في العلم فقد اخطأ ولم يصح . ان الانسان يستطيع ان يراعي الدقة العلمية التامة في البحث وهو مذكور دينه كل التذكرة ، ومعتقد صحته ككل الاعتقاد ، غير نموذج على قرآنه خطأ او على توراته . بل ان الدين الصحيح يزيد الباحث المتخلص ان امكن حراماً على الحق وانسكاباً به اذا وصل اليه . ان الباحث المتدين بين محيين في الحق : دينه وعلوه ، ومبغضين في الباطل : دينه وعلوه كذلك . فهو يجب الحق مرتين مرة لدينه ومرة لطمه . ويبغض الباطل مرتين كذلك . ولا خوف عليه مطلقاً ان يخفي بعض الحق او يدلس في البحث بحسب ارضاء لدينه ، اذ ليس الحق يخاف على دينه ولكن الباطل . هو يعلم ان دينه حق ، يعلم ذلك علم مستيقن . ويعلم ان العلم قائم على قاعدة استحالة التثافي بين اجزاء الحق ، يعلم ذلك علم مستيقن ايضاً . فهو لا يخشى ابداً ان يكشف البحث الصحيح عن حقيقة تتنافى دينه ولذلك يخفي في اجسامه آناً مطشئاً متبهاً أقوم الطرق في البحث والتفكير ، لان هذا هو الطريق الوحيد للوصول الى نتائج صحيحة فحسب ، ولكن لان هذا في اعتقاده هو ايضاً الطريق الوحيد الذي لا يؤدي الى تخالف بين العلم الذي يبحث فيه والدين الذي يؤمن به . فالدين الصحيح والتفكير العلمي الصحيح يمكن اجتهادهما اذن ، وكثيراً ما اجتمعا ، كما ان العاطفة الدينية القوية والعاطفة الدينية القوية لا تتعارضان بل تتضافران على خدمة العلم وتبشان على الاخلاص في البحث .»

ومن نتائج المصدر الاول ايضاً سبق مرغوليت للدكتور في نظرية وضع الشعر الجاهلي الذي اشار اليه اكثر من انتقدوا الكتاب كمحمد الحضر حسين التونسي<sup>(١)</sup> ومجلة الزمراء التي لحقت مقال المستشرق المذكور<sup>(٢)</sup> . ومنها مسألة تلك النقوش الحبرية التي تكلم عنها الدكتور طه حسين في كتابه الاول كلامه عن برهان يثبت الفرق بين اللتين المدنانية والقحطانية . فطلب منه غزوة دروزة « ان يأتيه باثبات من تلك النصوص والنقوش التي ثبتت المغامرة الواسعة بين المدنانية

(١) محمد الحضر حسين التونسي : الكتاب المذكور ، ص ١٧ ، ٢٧ ، ٥٢ . . .

(٢) الزمراء ، ( ٤ : ٦١٨ - ٦٣٠ )

والقحطانية في اللفظ والقواعد والتصريف . . . وان يبين اقرب تاريخ امتدت اليه هذه المأخوذة»<sup>١</sup> وكان الدكتور انتبه للقسم الاول من هذا الطلب فاورد ثلاثة امثلة من تلك النصوص في كتابه الثاني (ص ٨٨-٩١) . ولكنه تناقل عن القسم الثاني فلم يبين «اقرب تاريخ امتدت اليه هذه المأخوذة» واتى له ان يبين ذلك ! فانتقل الاستاذ العمراوي هذا الإغفال وتوسع فيه وبنى عليه فصوله في الصفحات (١٦١-١٨٩) ثم اردنها بالشعر الجاهلي واللهجات ، ثم بالعربية ولغة قرش (١٨٩-٢١٢) . ومن ذلك مسألة نقل الدكتور الكثير من معلوماته وآرائه عن ابن سلام . وكان قد ذكرها ، مصطفى صادق الرافعي<sup>٢</sup> وذكر غيره شيئاً متفرقاً في الأمر . فجمع المؤلف كل ذلك وتوسع فيه ، شأنه في سائر اجنائه ، واخرج منه ذاك الفصل الشائئ الذي سبأه «ذيق القدماء على صاحب الكتاب» (ص ٢٦٧-٢٧٦) . ومن ذلك ماخذ عديدة في تطبيق النظرية على الشعراء . مما اشار اليه الكثيرون من النقدة ، وشرنا الى بعضه في «الروائع» (في الاجزاء : الثاني ، الثالث ، والبايع )

واما ما اتجه المصدر الثاني فاقسم الاول من النقد (ص ١-١٠٠) بما فيه من الملاحظات الدقيقة في المحذوف من الكتاب واغفال اسباب حذفه (١-٤) وذكر اقوال الدكتور في معاصريه (٨-١٧) وبسط آرائه في الاصلاح والتجديد (٣٦٠ . . .)

واما المتكرر فهو تلك الآراء الطريفة ، والنظرات الدقيقة التي بثها المؤلف في فصوله عامة وخص بها بعض موضوعات ، كالادب وانشأ اسمه وتاريخه ومقاييسه ، واللاينية واليونانية وعلاقتها بالاديين الغربي والغربي ، والتقليد وتأثيره ، وحرية الادب ، والنقد الادبي والتاريخي . ولعل ادق ما في تلك الاجنات - وكلها دقيقة نفية - تحديد المؤلف للذوق الشخصي والذوق المكتسب وتأثيرهما في الادب ، وايضاحه للكثير من القضايا المشككة في الادب العربي المصري ، كقضية التقليد ، وقضية القديم والجديد . اما البحث في الذوق فيراه

(١) في الزمراء (٣ : ٢٤٧)

(٢) مصطفى صادق الرافعي : الكتاب المذكور ص ١٦٥



